النباتات الطبية الجنسية والتجميلية في النصوص المغربية الوسيطية: أرجوزة "بهجة المطالع في الحفظ للمجامع" لأبي الحسن علي المراكشي

محمد يعلى

نتناول في هذا الموضوع أرجوزة طبية مغربية مخطوطة من العهد المريني، محفوظة في الخزانة الحسنية بالرباط. سنحاول أن نكشف من خلالها عن جانب هام من تراثنا العلمي المتخصص في طب " الباءة والتزين"، بالوقوف على المادة النباتية الطبية التي قدمها مع غيرها أبو الحسن علي المراكشي في أرجوزة "بهجة المطالع في الحفظ للمجامع"، لعلاج ما يعيق حياة الزوجين الجنسية والجمالية الذاتية. ونقترح تركيز هيكل هذا العمل على محورين أساسيين، يمكن اعتبار أولهما كمدخل ضروري يمكننا من تشخيص عام للأرجوزة، ويساعدنا على التعريف بها وبصاحبها. أما المحور الثاني فسنسلط من خلاله الضوء على منهج صاحب الأرجوزة وعلى مضمونها الذي ينأى بها عن الطب العام، ويقتصر على طب عضوي متخصص في موضوع تدبير الحياة الجنسية والجمالية، ومداواة ما قد تتعرض له من خلل أو قصور باستعمال النباتات الطبية في المقام الأول.

ولا أحد ينكر ما لهذا الطب المتميز من أهمية تاريخية وآنية في حل مشاكل الإنسان الداخلية الخاصة التي كان لها - وما زال تأثير عميق وحاسم في حياته، وما لانعكاسات فعله الأساسي، إن سلبا أو إيجابا - من تغيير على مستوى علاقات الزوجين وحالة استقرار وتوازن الأسرة ونموها، ومن خلالها، سلامة وصحة المجتمع برمته.

أولا. التعريف بالأرجوزة وبصاحبها:

1. وصف الأرجـــوزة:

وصلتنا أرجوزة " بهجة المطاع في الحفظ للمجامع،" المحفوظة في الخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم 2933، مع الاسم الكامل لمؤلفها، وهو الشيخ أبو الحسن علي المراكشي[1]، حاملة أيضا لعنوانها المذكور[2]، مما يجعلنا، مبدئيا، نطمئن إلى انتسابها إليه دون ريب. وإذا كان تاريخ تأليفها معروفا من متنها، وهو زمن السلطان أبي الحسن علي المريني [3]، فإننا لا نتوفر على ما يعين على ضبط تاريخ تصنيفها بكامل الدقة المطلوبة[4]. كما جاءت خالية من اسم الناسخ ومكان وزمان النسخ. وتنمّ حالة هذه المخطوطة عن قلة العناية بها، إذ كانت توجد - حين وقفت عليها - في ملزمة مفككة داخل غلاف عادي من الورق المقوى، رمادي اللون وحديث العهد، لا يحمل من الأرجوزة إلا رقمها التوثيقي المرتب لها في الخزانة المذكورة.

أما مسطرتها، فهي كما أشار إليها الأستاذ محمد العربي الخطابي[5] " غير متساوية "، قَدّر مقاسها في 21 × 16 سم . ولون أوراقها أبيض، يصل مجموع عدده إلى سبعة عشر ورقة ، لكن المكتوب منها ينحصر في خمسة عشر ورقة فقط . دُوّن جلها بخط مغربي مجوهر من بداية الأرجوزة بالورقة الأولى رقم 66 أ، إلى الورقة رقم 79 أ، وكُتِبت الورقتان

---

(1) أشير لاسمه الكامل المذكور في نسخة خ. ح. ، وهو مجهول في نسختي الخ. الع. رقم 690 د، وخ. ك. أ. رقم مكل 163، عاشر مجموع . وقد أكد مجهولية المؤلف غير واحد من الأساتذة الباحثين، منهم ي. س. علوش وعبد الله الرجراجي في فهرس المخطوطات العربية المحفوظة في الخ. الع. برباط الفتح ، ق. 2، ج. 2، الرباط ، 1958، عدد 2669 ، ص 343؛ عبد العزيز بنعبد الله ، الطب والأطباء بالمغرب، المطبعة الاقتصادية، (د.م .) ،1380 / 1960، ص.95 ؛ Mohamed B. A. Benchekroun , La vie intellectuelle marocaine sous les Mérinides et les Wattasides (XIII°, XIV°, XV° ,XVI° siècles) , Rabat , 1974 , p.480 .

(2) هذه الأرجوزة، هي الآن قيد التحقيق والدراسة، وقد ورد عنوانها كاملا في البيت عدد 42 هكذا:

وَبَهْجَةَ المُطالِع في الحِفْظِ لِلمَجامِع

(3) نبّه الراجز إلى الاسم الشخصي للسلطان المريني أبي الحسن، وهو " عليّ " في البيت 16، ثم أكد نسبه إلى والده " أبي سعيد عثمان " في البيتين 21، 24.

(4) أما تاريخ الوفاة الذي ساقه الأستاذ عبد الصمد العشاب في فهرس م. ك. ط.، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المحمدية، 1417 / 1996، ص 245، والذي مفاده أن ناظم الأرجوزة أبو الحسن علي المراكشي قد توفي عام 614 هـ ، فهو تاريخ بعيد عن الصواب، لأنه سابق عن فترة حكم السلطان المريني أبي الحسن – من سنة 731/ 1331 إلى سنة 752 / 1352- الذي نُظِمت له الأرجوزة كما سنرى.

(5) أنظر فهارس الخ. الم. (حاليا الخزانة الحسنية)، الطب والصيدلة والبيطرة والحيوان والنبات، مج. 2، الرباط، 1402/ 1982، ص 205.

رقم 79 ب ورقم 80 أ بيد أخرى مختلفة الخط. ويدل هذا الترقيم على أن الأرجوزة كانت ضمن مجموع، ثم فُصلت عنه. كما يلاحظ المتفحص لها أيضا أن معظم كلماتها مشكولة، استعمل في تحريرها مداد أسود، غير أن عناوين الأبواب ووصفات الأدوية، وبعض الألفاظ والحروف قد كُتبت بالقلم الغليظ ، وبخط أحمر اللون، مع شكلها بالمداد الأصفر. أما الورقتان الأخيرتان المختلفتا الخط، فقد دونتا بمداد أسود فاحم دون تحليته بالألوان. ورغم أن الأرَضة قد هاجمت كثيرا هوامش المخطوطة فإن إتلافها للجزء المكتوب بقي محدودا، إلا أنها مع ذلك قد تسببت في غياب كثير من الحروف والألفاظ والجمل.

وإذا غابت من الأرجوزة الإشارة إلى صيغة تحبيس أو تمليك أو تعليق، فإنها - عكس النسخ التي قد تيسر لنا الوقوف عليها- تلفت نظر القارئ إلى وجود تصويبات وعدة شروح جزئية مفيدة، دُونت بيد أخرى[6] مما يجعلنا لانميل إلى اعتبارها نسخة أصلية لمؤلفها. كما وصل عدد أبياتها إلى ثمان وتسعين وخمسمائة[7]. وهي تبتدئ ببيت:

الحمدُ لِلـه الـحَكيم ذي الفَضْل والصُّنْع الكَريم

وتنتهي ببيت:

ووالدَيْه الأشْرفيْن الأزْكَيَيْن الأطْهَريْن

ومما يجدر ذكره أيضا، أن هذه الأرجوزة ما زالت - حسب علمنا - مخطوطة، وأن المؤلف أشار في متنها إلى أنه قد نظمها للسلطان المريني المعروف أبي الحسن "علي بن أبي سعيد عثمان"[8]، وليس للسلطان أبي سعيد عثمان الذي امتد عهده ما بين عام 1310/710 وعام 1331/731. ويبدو أن الأمر قد التبس على بعض الباحثين: فقد أشار الأستاذان علوش والرجراجي في فهرسهما إلى أن المصنف" نظمها لأبي سعيد عثمان سليل عبد الحق

(6) يبدو من بيان الشروح ومرادفات أسماء النبات والأعشاب، والتصويبات التي أضيفت في الحواشي، ووضعت أحيانا فوق بعض السطور، أن كاتبها من القارئين العارفين بالموضوع، والمنتمين إلى مدينة فاس. أنظر على سبيل المثال في الأرجوزة الأوراق 66، 68، 69، 70.

(7) حصرها م.ع. الخطابي بفهارسه، نفس المرجع والصفحة، في عدد 596 بيتا، وهو خطأ لعلّه مطبعي.

(8) أنظر أعلاه ح. 3 و 4؛ والأرجوزة ، بيت 36، حيث وصف المؤلف السلطان أبي الحسن بأنه **"كله حسن"**.

[المريني] ، المتوفى ليلة الجمعة25 قعدة الحرام عام 731 "[9]. ونقل عنهما ذلك غير واحد من المهتمين بها مثل الأستاذ عبد العزيز بنعبدالله الذي قال إنها:

" نظمت لأبي سعيد عثمان المريني المتوفى عام 731" [10]، والأستاذ محمد العربي الخطابي الذي ذهب ابعد منه قائلا: " نظمها صاحبها للسلطان أبي سعيد عثمان بن عبد الحق المريني (614- 638 / 121- 1240)"[11]. أما الأستاذ محمد بن شقرون، فقد اكتفى بذكر اسم السلطان" أبي سعيد عثمان " دون أن يحسم الأمر بتحديد من منهما كان معنيا بالأرجوزة[12]. هل هو ابن الأمير عبد الحق المدعو أبو سعيد عثمان الأول حسب ما ورد عند الخطابي؟ أو هو حفيده الأمير أبي سعيد عثمان الثاني (710-731 هـ .)؟

ونظرا لما لهذه الأرجوزة من أهمية طبية وتجميلية واجتماعية، فقد تداولها المغاربة القدماء, واستفادوا منها في حياتهم، كما أقبلوا على تدوينها: إما بنسخها نسخا كاملا نسبيا كالحال بالنسبة للنسخ الثلاثة التي توجد أولها في الخزانة الحسنية بالرباط تحت عدد 2933، وتحفظ ثانيها بالخزانة العامة في الرباط رقم 690 د، وتقبع ثالثها في مدينة طنجة بمكتبة الأستاذ عبد الله كنون تحت رقم 10399. وإما بنقلها نقلا جزئيا وانتقائيا ، مثل نسخة خزانة كلية الآداب والعلوم الإنسانية - أكدال- بالرباط، رقم 163 عاشر مجموع، والتي مكنني منها - مكتوبة بخطه الرفيع- مشكورا، الأستاذ محمد المغراوي. ومن مقارنة هذه النسخ، تبين لنا وجود اختلاف فيما بينها في عدد الأبيات، وخصوصا بين النسخ الثلاث المذكورة نتيجة لما تعرضت له كل واحدة منها - على يد النساخ - من إضافات وحذف، طالا أحيانا عددا من الوصفات الطبية أو شيئا من مكونات بعضها.أما نسخة خ. ك. أ. ، فقد اقتصر ناسخها على جزء صغير منها، تضمن موضوع الباءة من ناحية، ومتعة الممارسة الجنسية العملية من ناحية أخرى، دون الإشارة إلى مادة النباتات الطبية المرتبطة بهما[13].

---

(9) أنظر نفس المرجع والصفحة.

(10) نفس المرجع والصفحة.

(11) أنظر فهارس الخ. الم. نفس المرجع والصفحة.

(12) Cf. La vie intellectuelle, op. cit .

(13) بينما يصل مجموع عدد أبيات نسخة الخ. الح. إلى 598 بيتا, يرتفع هذا المجموع في نسخة م. ك. ط. إلى 714 بيتا، وفي نسخة الخ. الع. إلى 720 بيتا، في حين ينزل هذا العدد في نسخة خ. ك. أ. إلى 90 بيتا.

2. من هو ناظم هذه الأرجوزة؟

تواجه الباحث في ترجمة ناظم هذه الأرجوزة معضلتان متداخلتان: تعود أولاهما إلى اختلاف الاسم الكامل للمؤلف الذي ورد في نسخة خ.ع. واضحا، فهو" الشيخ أبو الحسن علي بن الشيخ الطبيب أبي الحسن علي المراكشي" [14]. أما نسخة م. ك. ط. فقد ذكرت أن اسمه الكامل هو: "الشيخ أبو الحسن علي بن الشيخ الطيب بن أبي الحسن علي المراكشي العنسي". ولحل هذه المعضلة علاقة بأختها, وهي تعذر الوقوف على ترجمة مبدع الأرجوزة. ترجمة ما زلنا حتى الآن نفتقدها رغم بحثنا عنها في كثير من المظان المعاصرة له أو اللاحقة بعده، مثل كتاب" المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن"[15]، الذي عرض مؤلفه ابن مرزوق أعلام عدد من أطباء السلطان أبي الحسن، كان من بينهم واحد يسمى" أبو علي حسن المراكشي القسنطيني"[16]. والجزء الثاني من كتاب" نفاضة الجراب في علالة الاغتراب" لابن الخطيب[17]، الذي ذكر، في إشارة مقتضبة خلال حديثه عن أزمة المغرب أيام السلطان أبي سالم المريني (762 / 1361)، اسم طبيبه الخاص، وهو " أبو الحسن المراكشي القسنطيني "[18]. وفي كلتا الحالتين لم نعثر لأي منهما على خبر يمكن أن يعين على الوصول إلى ترجمة صاحبنا مؤلف الأرجوزة.

يبدو إذن، أن اسم المؤلف الحقيقي الكامل وترجمته وجهان لمشكل واحد معقد ومتفاعل، قد يتيسر حله بالعثور على أحدهما. وتبقى الخلاصة من كل هذا أن معلوماتنا عن المؤلف، إلى حد اليوم، لا تعدو مستوى اسمه المذكور في الأرجوزة، بحيث نجهل كل شيء عن تاريخ ولادته، ووفاته، وتكوينه الدراسي، وشيوخه، وتلامذته، ومهامه. بل إن ما لدينا الآن من عمله، هوأرجوزته التي تدل على أن الرجل كان طبيبا متخصصا، وأديبا متمكنا، زيادة

(14) قرأه الخطابي في فهارسه, هكذا:" الشيخ أبو الحسن علي بن الطيب أبي الحسن علي المراكشي"، حيث سقط لفظ " الشيخ " بعد لفظ " الطيب" وليس الطبيب.

(15) دراسة وتحقيق الدكتورة مريا خسوس بيغيرا, الشركة الوطنية للنشر والتوزيع, الجزائر, 1401 / 1981.

(16) نفس المصدر، ص382.

(17) نشر وتعليق الدكتور أحمد مختار العبادي, مراجعة الدكتور عبد العزيز الأهواني، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، (د . ت .)، ص 31، 271.

(18) نفس المصدر، ص 31، 271.

عن كونه فقيها. وما نعرفه حاليا هو أنه كان حيا في عهد السلطان أبي الحسن المريني، وقد يكون من بين المقربين له. فهل تكون ظاهرة المجهولية قد حجبته كما حجبت غيره من كبار الأعلام المغاربة الوسيطيين؟ سيما بالنسبة لرجل كأبي الحسن علي المراكشي، ألف في طب متميز، كان يتطلب مناخا كافيا من الحرية العلمية العقلانية، التي كان هامشها - حسب علمنا - قد ضاق في العصر المريني. كما لايستبعد أن يكون هذا الطبيب قد واجه معارضة الفقهاء المحافظين من خصومه ذوي النفوذ، نظرا لمرور تاريخ الطب في المغرب بمرحلة تخلف عام في العصر المريني مقارنة بالمرحلة الطبيه المزدهرة السابقة خلال عهدي المرابطين والموحدين[19]، ولِما كان أيضا لموضوع طب" الباءة (الطب الجنسي) والتزين" (التجميل) من حساسية خاصة لدى الكثير من الفقهاء المالكيين، الذين لم يكونوا غالبا ينظرون إلى هذا النوع من الطب وأهله نظرة احترام.

ثانيا. منهج صاحب الأرجـوزة ومضمونها النباتي الطبي:

1. منهج صاحب الأرجوزة:

اختار أبو الحسن علي المراكشي لتناول موضوع طب " الباءة والتزين " نظم الرجز، بذل أسلوب النثر، كأداة لعرض مادته، ووسيلة لإبراز مهارته الأدبية ومعرفته العلمية، في عصر أخذ فيه هذا اللون من التعبير الأدبي ينمو نتيجة إقبال كثير من أهل القلم المغاربة في العهد المريني على التنافس في استعماله[20]. وقد استخدم في نظمها لغة علمية سهلة، تهتم في المقام الأول بتبليغ المعنى المقصود للقارئ مباشرة، بعيدا عن الاهتمام بزخرف الكلام وبمحسناته البديعية والبيانية. غير أنها تعكس أسلوب الطبيب الذي يتسم باستخدام تعبيرات تقريرية مشوبة بصيغة الأمر. كما التزم قافية متماثلة في نهاية شطري البيت الواحد، نادرا

(19) أنظر ابن خلدون، مقدمة، تح. الدكتور علي عبد الواحد وافي، ط. 2، القاهرة، 1287 / 1967، ص. 1283؛ Lucien Leclerc , Histoire de la médecine arabe , t. II , Rabat , p. 257؛ ماكس مايرهوف، " العلوم والطب "، مقال نشر بكتاب تراث الإسلام، إشراف سير توماس أرلوند، تعريب جرجيس فتح الله، ط. 2، 1972، ص. 494 ؛ Benchekroun , op. cit. , p. 479

(20) أنظر خصائص الأرجوزة المغربية من الناحية الأدبية في مقال الزميل الأستاذ عبد الجواد السقاط تحت عنوان: " الأرجوزة في الأدب المغربي"، المناهل، عدد 35، 1407 / 1986، الرباط، ص، 284-331.

جدا ما تتكرر في غيره[21]. وبقدر ما تميز حرصه الواضح - من الناحية الشكلية - على تقليد البناء العام المعروف للأرجوزة المغربية [22]، حافظ من ناحية المضمون على وحدة الموضوع، فقسم هيكله العام إلى ثلاثة أطراف: مدخل، وعرض، وخاتمة:

1. المدخل:

استهل المصنف مدخل أرجوزته بعبارات الحمدلة والتسبيح والتصلية، ثم وضّح بعد هذا مشروعية " النكاح " - موضوع الأرجوزة - من وجهة النظر الدينية والعلمية ، محددا موقعه المعرفي ضمن صنف " علم الأبدان " الذي كان يقابل عند القدماء "علم الأديان"[23]. وزاد في حجم إعلان الولاء للسلطان أب الحسن المريني ووالده أبي سعيد عثمان، ومدح ومجّد عهدهما، ووصف حالهما، ثم أشار إلى رعاية أبي الحسن المريني للعلوم دون تمييز بينهما، وذكر مبررات تصنيف منظومته مبرزا أهميتها[24] قبل أن يفصح عن عنوانها[25].

2. العرض:

أ – من ناحية الشكل : حدد الراجز، بكيفية منظمة ومحكمة البناء ، العناصر الرئيسية والفرعية لهيكل الموضوع مستعملا، في تبويبها وترتيب موادها الأساسية، عبارات دالة، رغم اختلافها الشكلي، مثل: " القول في "، " القول ب "، " واعلم "[26]. وذلك لإشعار القارئ ببداية أو نهاية محور أو عنص، والانتقال به إلى ما يليه، خصوصا وأنه قد صاغ تلك التعبيرات في شكل أبيات شعرية مندمجة مع غيرها، حفاظا منه على استمرار وزن الإيقاع الموسيقي للرجز. كما بدأ الوصفات الطبية، في معظم الحالات بعناوين نثرية مستقلة، كان يستهلها بواحدة من هذه الألفاظ: " صفة "، " ذِكر "، " دواء " و"أدوية "[27].

ب – من ناحية المضمون: تتميز الأرجوزة بالتعدد النوعي لموادها الطبية من نبات، وحيوان، ومعدن، وحجر. لكن المادة الطبية النباتية التي تهمنا في هذا الموضوع، وهي التي

(21) راجع على سبيل المثال في نسخة أرجوزة خ. ح. المعتمدة في جميع إحالاتنا، الأبيات: 493 – 496.
(22) أنظر السقاط، نفس المرجع، ص 308 - 315.
(23) أنظر الأرجوزة، الأبيات: 11-15 ، 37، 38.
(24) نفس المصدر، الأبيات: 33، 39 – 41.
(25) نفس المصدر، البيت 42.
(26) نفس المصدر، الأبيات: 44، 104، 224، 278، 299، 351، 416.
(27) أنظر في نفس المصدر، على سبيل المثال، الورقة رقم 72 أ.

استعملها مؤلفنا بكثرة، في تدبير وعلاج " الباءة والتزين" قد جمع فيها ما بين عناصر الغذاء والدواء، فضلا عن إلحاحه على سلوك طريق الوقاية. كما تميزت، أيضا، أنظمة التغذية الصحية التي اقترَحها لتحسين مستوى الأداء في ممارسة الجماع وعملية التجميل، وكذا وصفات الأدوية التي نصح بها المحتاجين إليها - سواء كانت مفردة أو مركبة - بالتركيز على المواد النباتية البرية أكثر جدا من البحرية، دون أن يغفل في بعض الحالات فائدة مزج مكونات بعضها - أعني الوصفات الطبية النباتية - بمواد طبية من أصل حيواني بري أو بحري، أو من أصل صخري أو معدني، أو الجمع بين بعضها[28].

قسم أبو الحسن علي المراكشي المضمون العام إلى محورين رئيسيين، صنف كل واحد منهما إلى عناوين فرعية. واهتم في المحور الأول بطرح قضايا التربية الجنسية على صعيد المعرفة العلمية الصحيحة من جهة، وعلى مستوى أشكال الممارسة التي ضبطها بشروط، ونبه إلى منافعها، وإلى أضرارها من جهة أخرى. وأورد علاج ما يهدد سلامة أدائها من أخطار كالجهل، والمرض، والقصور، والعجز. وناقش، في عدة فصول، أهم معضلات القصور الجنسي المؤثرة - طبعا - في الحياة الزوجية اليومية، مركزا عنايته القصوى على جنس الذكر أكثر من جنس الأنثى[29].

وخصص المحور الثاني من الأرجوزة لتناول موضوع التربية الجنسية والتجميلية البدنية، بتركيزه،هذه المرة أكثر، على المرأة بالدرجة الأولى[30] دون أن ينسى الرجل. وقبل أن يصف أدوية لمختلف المعيقات التي تحد من جمال أعضاء الذات النسوية الظاهرة والخفية المرغوبة[31]، عرض على مستوى طبيعة الأنثى، في حد ذاتها، تصنيفات جمالية جسدية وجنسية وافية، حسب شبكة معايير متنوعة، حددها في تباين مستوى العمر، والقامة، وشكل بعض أعضاء البدن ، ولون المزاج[32]، وضع من خلالها، على خريطة جل أقطار العالم الإسلامي والعربي وغيره، توزيعا جغرافيا لخصوصيات مختلف صور جمال المرأة الجسمي والجنسي، بيّنها بشتى المقاييس، دون أن يغيّب فيها - أعني الخريطة - توزيع

(28) راجع في نفس المصدر مثلا البيتين: 242 – 243.
(29) نفس المصدر، الأبيات: 44 – 290.
(30) نفس المصدر، الأبيات: 301 – 580.
(31) نفس المصدر، الأبيات: 444 – 580.
(32) نفس المصدر، الأبيات : 305 – 414.

مظاهر القبح الأنثوي أيضا [33]. هذا، بعد ما سبق له أن رسم صورة رائعة لعناصر جمال المرأة الكامل[34]، أو ما يسميه المعاصرون اليوم "ملكة الجمال ". ثم قدّم أوضاع الجماع المختلفة[35].

3. خاتمة:

خرج علي المراكش من أرجوزته بتقييم عام لعمله. وبقدر ما وصفه بالمفيد، والحقيقي، والوافي بالغرض، إلى جانب أثره الإيجابي على سعادة الإنسان[36]، اعتذر عن اختصار مادتها تجنبا للملل[37]، معترفا - في تواضع العلماء - بتقصيره، وراجيا رضى سلطانه[38]، ثم وجه له في النهاية عبارات المدح والدعاء، وحيا بجملة أخرى والدَي أبي الحسن المريني[39]، تاركا في ذهننا أكثر من سؤال!

فمن بين القضايا البارزة التي تثيرها قراءتنا الحالية لهذه الأرجوزة، أن ناظمها لم يهتم إطلاقا بذكر المصادر التي استقى منها مادته الطبية ، سوى في حالة نادرة جدا لم يعن باستكمال توثيقها[40]، مما يدعو إلى الظن بأنه اعتمد أكثر على تكوينه المعرفي وتجربته كمعالج محترف للمهنة، اتبع منهج طبيب مختص، أشار إلى الحالات البائية العادية السليمة، وأبدى رأيه في إمكانية تحسينها، وأرشد المعنيين بها - حفاظا على سلامتهم - إلى فائدة الوقاية والاعتدال، وحذرهم من سلوك العكس[41]. كما شخّص بدقة أعراض عدة معضلات جنسية، ووصف لها أدوية مختلفة لنفس الحالة[42].

فهل يرجع عدم الكشف عن مصادره إلى طبيعة هذا النوع من التصنيف المنظوم؟ أو هو يعود، على الأرجح، إلى إعراب المؤلف، في غير موضع، عن تعمد الاختصار، خصوصا

(33) نفس المصدر، الأبيات:321-250.
(34) نفس المصدر، الأبيات:305 - 320.
(35) نفس المصدر، الأبيات:416 -440.
(36) نفس المصدر، الأبيات:581- 584.
(37) نفس المصدر، البيتان: 585- 586.
(38) نفس المصدر، الأبيات: 587- 589.
(39) نفس المصدر، الأبيات:590- 598.
(40) أشار علي المراكشي إلى الطبيب اليوناني المعروف أبقراط في" **وصفة شراب مفيد**" بالورقة رقم 70 أ، ثم ذكر أيضا أنه نقل مادته مما " **انتشر، ومن خبَر ما قيل** "، كما ورد في البيتين: 292-293.
(41) راجع في الأرجوزة البيتين:52 – 53.
(42) أنظر في الأرجوزة عل سبيل المثال الأبيات: 270-277.

وأن تصنيف الأرجوزة لأعلى سلطة في الدولة المرينية كان يتطلب منه تقديم عمل علمي طبي مركز، كي لا تقطع تفاصيله جو استمتاع أمير المسلمين وغيره بها، نظرا لطبيعة موضوعها المثير الذي يخاطب الإنسان وأحاسيسه وذوقه أكثر مما يتوجه إلى عقله . فضلا عن أن الباحث عن المتعة أو العلاج من المصابين، ما يهمه عادة هو الحصول على الوصفة الطبية الناجعة، وليس مصادرها. يضاف إلى هذا أن الرجوع إلى بعض مصادر الطب العام السابقة عن عصر الأرجوزة أوقفنا على أصول بعض مكونات الأدوية النباتية التي وصفها أبو الحسن علي المراكشي في أرجوزته ، مثل "كتاب الأدوية المفردة " لابن وافد الأندلسي (467 / 1074)[43]. و"كتاب المجربات" لأبي العلاء زهر الأندلسي(525 / 1130)[44].

فهل هذه الأعذار كافية ليسكت المؤلف عن ذكر مصادره؟

بقيت نقطة أخرى نواجذ مصنف الأرجوزة عن تقصيره فيها، تتعلق بورود غير واحدة من الوصفات الطبية العملية ناقصة، حيث لم يذكر، على سبيل المثال لا الحصر، الكميات المطلوبة المكونة لها، أو كيفية إعدادها، أو شرح لطريقة استعمالها بتفصيل[45]. ولعل مرد ذلك يرجع - إن لم يكن لسهو النساخ أو لانتقائيتهم - ربما إلى طريقة بعض القدماء في ضرورة الإشراف المباشر للطبيب المعالج على مرضاه، بما في ذلك إعداد خلطة الدواء، وكيفية الاستعمال، حتى لا يُستغنى عن خدماته في مرحلة العلاج والتداوي بعد تشخيصه للمرض، ووصفه للدواء.

2. المضمون النباتي الطبي للأرجوزة:

1. ملاحظات:

لابد من الإشارة إلى عدة ملاحظات تتعلق بمحاولة دراستنا لهذا العنصر الهام من الموضوع، نلخصها فيما يلي:

(43) دراسة وتحقيق وترجمة Luisa Fernanda Aguirre de Carcer، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، مدريد،1995.
(44) تحقيق وترجمة ودراسة Cristina Alvarez Millan، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، مدريد، 1994.
(45) يمكن الرجوع إلى نماذج من الوصفات الطبية الغير الكاملة في الأرجوزة، بالأبيات:255-265 ،270-27،466-467.

تَطرح الملاحظة الأولى، على دارس هذه الأرجوزة، صعوبات تتجلى في إشكالية تحليل محتواها النباتي بعد فرزه عن المواد غير النباتية، ثم تصنيفه حسب وجهة النظر الطبية في جداول، تُبين أصول النباتات وفروعها، انطلاقا من تمييز خصائصها الطبيعية والكيماوية، وتقدير مفعولها العلاجي حسب ما هو معروف لدى أهل العلم، وعند محترفي أهل الصنعة، على غرار ما فعله مثلا، أبو الخير الإشبيلي (ق. 6 / 12)، في "عمدة الطبيب في معرفة النبات "[46]، وما قدّمه ابن وافد المذكور في " الأدوية المفردة ". إشكالية يستلزم فكها المزيد من الدراسة والاستقصاء، والتلسح بالآليات الكافية للبحث في هذا العلم بصفة خاصة، وفي تاريخ الطب على العموم.

وتشير الملاحظة الثانية إلى أن كثيرا مما ورد في الأرجوزة من أسماء النباتات الطبية يعود مصدره، جغرافيا ولغويا، إلى منطقة المناخ الحار، كبلاد الهند وإيران، وأحيانا إلى المنطقة المعتدلة مثل اليونان والمغرب، مما يبرر شكل رسمها اللفظي وقراءتها الغريبين عن لغتنا. ويرتبط بهذا الأمر أن عددا من أسماء النباتات، أو المواد المركبة منها، يلتبس فهم مدلولها الحقيقي عند مجرد القراءة الأولى، نظرا لأصولها غير العربية من جهة، ولشكل رسمها العربي، الذي يوحي من جهة ثانية - ولأول وهلة - بمعناها في اللغة العربية، مثل لفظ " نار"، الذي ليست له أية علاقة بمعناه العربي المعروف، لأن أصله الطبي الفارسي يدل على نوع من الرمان. كما توجد بها مواد أخرى مركبة من عناصر نباتية وحيوانية ومعدنية يصعب تصنيفها، مثل:"رامك "- أساس مادة السُّك - وهو مركب من عفص، وصمغ عربي، وعسل، وزاج [47]. "والتوتيا"، وهي ثلاثة أنواع: معدنية، ونباتية، ومصنوعة[48].

وتنصبُّ الملاحظة الثالثة على الجانبين الكمي والنوعي للنباتات الطبية. فما قدّمه أبو الحسن من مواد نباتية لعلاج" الباءة " كان أكثر عددا من نظيره المخصص لموضوع التجميل. كما حذّر من تناول نوعية نباتية معينة لأنها - حسب رأيه - مضرة بالجماع أو

(46) قدم له وحققه وأعاد ترتيبه محمد العربي الخطابي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة التراث، الرباط، (د. ت.).

(47) أنظر الأرجوزة، بيت 460؛ ابن وافد، كتاب الأدوية المفردة، نفس المصدر، ج.1، ص.380 ، وج. 2، ص 118؛عبد السلام بن محمد العلمي الحسني، ضياء النبراس في حل مفردات الأنطاكي بلغة فاس، الرباط، (د. ت.)، ص 65،74.

(48) راجع الأرجوزة، بيت451؛ والعلمي، نفس المصدر، ص 38.

مضعفة لقواه، نذكرها لأهميتها، وهي:" القثا، البقلة الحمقا، الخس، الخيار، الخل ذي الأخدار، الهندبا، ثوم، جمار، كمون، القرع، حصرم، عنب الثعلب، الدلاع الأخضر، خبز الخشكار، خبز جورس، بزر الخس، عدس، فيجن، شبث "[49]. وخصص معظم النباتات التجميلية ومستحضراتها للعناية بجمال بدن النساء أكثر من الرجال.

2. النباتات الطبية البائية والتجميلية،

يستلزم الإقدام على دراسة هذا النص استخراج أنواع النباتات الطبية الخاصة " بالباءة والتزين " من كل ما خالطها في الأرجوزة من مواد طبية أخرى ذات أصل حيواني، مثل " كلية الإسقنقور، عنبر، مسك، صدف، علق". أو من أصل معدني، " كبورق، نطرون، دهنج، وزاج ". أو من مصدر صخري رسوبي كيماوي، كالحال بالنسبة لمواد:" إثمد، شب، والملح الأندراني". وهو ليس عملا سهلا، ولا متناولا بالقراءة اللغوية فقط، حسب ما كنا نتصور!

ويكون من الضروري، بالإضافة إلى ذلك أيضا، ضبط شكل ومعنى عدد غير قليل من أعلام النباتات الطبية الواردة في هذا النص، واللافتة للنظر، والتي كثيرا ما يلتبس على الباحث والدارس تصنيفها وتحديد مدلولاتها، لأنها قد نُسبت – كتابة في الأرجوزة - إما لأسماء الحيوان أو لبعض أعضائه، مثل:" عِنَب الثّعلب، خِصْي الثعلب، خصي العجاجل، وخصي التّيْس "[50]، وإما إلى عناصر الطبيعة كالماء، مثل:" زَبَد البحر"، الذي لا يعني بتاتا رغوته السطحية، كما يتبادر ذلك إلى الذهن فور القراءة الأولى، بل هو نوع خاص من النباتات البحرية.

ولتيسير إدراك أهمية المنافع الطبية والصحية لأصناف النباتات التي استعملها المراكشي في وصفاته العلاجية والتجميلية بمنظومته، اجتهدنا هنا في محاولة ترتيب النباتات الغذائية المقوية للباه في جدول حسب التصنيف الطبي العصري للغذاء الصحي لدى المختصين. كما حصرنا في جدول آخر المجموعات النباتية حسب النظام القديم، مرفوقة بأمثلة، وانتهينا في

(49) الأرجوزة، الأبيات: 278 – 290.
(50) نفس المصدر، الأبيات: 146، 152، 260، 283.

الأخير إلى تجميع ما اقترحه هذا الطبيب على المرأة لتجميلها وتزينها. وهو ما نعرضه فيما يلي:

أ. النباتات الطبية الغذائية المقوية للباه:

نباتات طبية غذائية مقوية	أنواعـها	وظائفها الصحية	تصنيفها الغذائي العصري
جلبان، حمص، لوبيا، فول...	قطـاني	تبني الجسم	بروتينات نباتية
1- سمسم، بزر كتان، حلبة... 2- لوز، جوز، جوز نارجيل، فستق، بندق.	حبوب زيتية. فواكه زيتية يابسة.	تزود الجسم بالحرارة	دهنـيات
تين، السكر الطبرزد والحلواء(هما من أصل نباتي).	مُحليات	تزود الجسم بالطاقة	سكريات
1- لفت، هليون، بصل، خرشف، قلقاس، فجل .... 2- بطيخ، عنب، خوخ ..... 3- نعنع، كرافس، جرجير...	خضر طرية فواكه طرية أوراق خضراء	تقي الجسم من الأمراض(المناعة)	أملاح معدنية، فيتامينات، وماء
بزر، قرطم.	مُتبِّلات ومُلونات	مسخنات	توابل وأصباغ

ب. نماذج من النباتات والمواد النباتية المعالجة للباه:

المجموعات النباتية	أمـثـلـة عـنـها
أصـــول	أصل جوز أخضر، أصل قشر الكبر.
بـــزور	بزر الكتان، بزر البصل، بزر البطيخ.
حبـوب	حب البان، حب الزلم، حبة خضراء.
دهـون	دهن الأقحوان، دهن جلجلان.
صمـوغ	صمغ أنجدان، صمغ كندر.
بقـول	البقلة الحمراء.

ج. نباتات طبية لتجميل المرأة:

خصص المراكشي عددا غير قليل من الوصفات الطبية النباتية، أو التي يدخل في تركيبها المكون النباتي، لعلاج أمراض وعيوب جسم النساء من جهة، والعناية بلياقته المناسبة لذوق العصر، وتحسين جماليته، والحفاظ على شبابه من جهة ثانية. ونذكر هنا أسماء بعض النباتات التي ساقها لهذا الغرض مثل:" شقائق النعمان، جوز السرو، نوار الإهليلج، قشر الرمان، قصب الطرو، سنبل، آفيون، شوكران، صفصاف، بزر قطون، لاذن"[51]. كما وصف للمرأة أيضا من جهة ثالثة، نخبا من العطور الرفيعة. ومن بين ما ورد في الأرجوزة من النباتات والأعشاب المُطيِّبة:" قرفة، صندل العود، الورد، قرنفل، كافور، تفاح، الآس"[52].

وخلاصة القول، أن الدارس للأرجوزة، قد ينتابه شعور برتابة أدائها الشعري، وصعوبة متابعة قراءة بعض مواد فصولها، لتعذر فك مدلولات رموز غير واحد من المصطلحات الطبية، ولعسر استيعاب كل معاني أسماء النباتات والوصفات الطبية النباتية؛ وهي صعوبة يرتبط تدليلها أساسا بضرورة تملك ناصية المعرفة النباتية والأدبية الطبية المتعمقة. ورغم ذلك كله، فإن القارئ يشعر، في ذات الوقت، بضرورة الاستمرار في قراءات متجددة لها، متسلحا بأدوات البحث اللازمة، ومستعينا بذوي المعرفة والتكوين المتخصصين في موضوعها، استعدادا لتحقيق مضمونها، لما له من قيمة تراثية أدبية وعلمية بالغة، ولأنه كذلك، يمثل في حد ذاته من ناحية، نصا نباتيا طبيا ثمينا من العهد المريني، تم توظيفه علميا وفنيا في مجال تدبيرشأن مجتمعي حميمي خاص، ولكونه من ناحية ثانية، يؤرخ لتطور الطب الجنسي والتجميلي بالمغرب، فضلا على أن هذه الأرجوزة تشهد تاريخيا على مدى رقي المجتمع المغربي، وثراء ذوقه الجمالي وعقلنة ثقافته الجنسية في إطار مقوماته الشخصية الإسلامية المتوازنة. مجتمع لا مجال لمقارنة حاله اليوم بطغيان ظاهرة الإباحية الجنسية المتوحشة في واضحة النهار، وبتفشي تبعاتها الصحية الخطيرة، التي داهمنا وباؤها في عقر دارنا!

(51) نفس المصدر، الأبيات: 446، 449، 450، 451، 454، 455.
(52) نفس المصدر، الأبيات:531، 532، 541، 543.

دليل المختصرات المستعملة

خ.ح.: الخزانة الحسنية.

خ. م.: الخزانة الملكية.

خ.ع.: الخزانة العامة.

م. ك. ط.: مكتبة العلامة عبد الله كنون بطنجة.

خ. ك.أ.: خزانة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكدال، الرباط.

ق.: قسم.

ج.: جزء.

Tome.: .T

مج.: مجلد.

ط.: طبعة.

حا.: حاشية.

(د. ت.): دون تاريخ.

(د. م.): دون مكان.

/: فاصل بين التقويمين الهجري والميلادي.

محمد يعلى

كلية الآداب والعلوم الإنسانية، المحمدية